Journal of Arabic Language and Literature (JALSL) • Vol 3, Issue 3 (2024) • P: 16 - 1
https://journals.ajsrp.com/index.php/jalsl
ISSN: 2790-7317 (Online) • ISSN: 2790-7309 (Print)

The Beginnings and Endings of Hejaziyat Al-Sharif Al-Radi

Dr. Khalid Hamid Mohammed Nuwaiher Alghanmi
Ministry of Education | Kingdom of Saudi Arabia

Received: 30/01/2024
Revised: 12/02/2024
Accepted: 01/03/2024
Published: 30/06/2024

* Corresponding author: khmn1396@hotmail.com

Citation: Alghanmi, KH. H. (2024). The Beginnings and Endings of Hejaziyat Al-Sharif Al-Radi. *Journal of Arabic Language Sciences and Literature, 3*(3), 1–16. https://doi.org/10.26389/AJSRP.K300124

2024 © AISRP • Arab Institute of Sciences & Research Publishing (AISRP), Palestine, all rights reserved.

• **Open Access**

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: The study examines the significance of the "matali'" (introduction) and "khatma" (conclusion) in Arabic poetry, highlighting their importance in evaluating the quality of poetry. The introduction is seen as a key element in attracting the reader's attention and showcasing the poet's skill, while the conclusion is crucial in leaving a lasting impression on the reader and reinforcing the poem's themes.

The study draws on the views of both ancient and modern critics, including Ibn Rashiq and Ibn al-Athir, who emphasize the importance of a well-crafted introduction in establishing the poet's mastery and engaging the reader. Modern scholars such as Dr. Mustafa Swayf and Dr. Yusuf Husayn Bakkar also stress the role of introduction as a gateway to creative expression and a means of distinguishing between good and poor introductions.

Recent studies have underscored the significance of the introduction as an indicator of the poem's beauty and coherence. The conclusion is also considered a vital component, as it helps solidify the poem's impact on the reader's memory. The study proposes an in-depth analysis of the "Hajjajiat" of al-Sharif al-Radi to explore the effects of introductions and conclusions on poetry's aesthetic and communicative power.

keywords: Hijaziyat - Al-Sharif Al-Radi - Prince of Iraq Hajj - Poet of Hijaziyat

مطالع وخواتيم حجازيات الشريف الرضي

د. خالد حميد محمد نويهر الغانمي
وزارة التعليم | المملكة العربية السعودية

المستخلص: تناول البحث أهمية "المطلع" و"الخاتمة" في الشعر العربي، حيث يُعتبر حسن الاستهلال وحسن الختام من معايير جودة الشعر.

يُشير النقاد القدماء، مثل ابن رشيق وابن الأثير، إلى أن المطلع الجيد يُظهر مهارة الشاعر ويجذب انتباه المتلقي. المحدثون، مثل الدكتور مصطفى سويف والدكتور يوسف حسين بكار، أكدوا أيضًا على أن المطلع يعد مفتاح العمل الأدبي وجواز المرور إلى عالم الإبداع الشعري، محددين شروطًا لتمييز المطالع الجيدة عن الرديئة.

تُبرز الدراسات الحديثة أهمية المطلع باعتباره مؤشرًا لجمال القصيدة وتناسق معانيها. كذلك، تُعد الخاتمة عنصرًا أساسيًا يثبت القصيدة في ذهن المتلقي، حيث وصفها النقاد، مثل ابن رشيق القيرواني، بأنها الجزء الأكثر تأثيرًا واستمرارية في الذاكرة.

يناقش البحث تأثيرات المطالع والخواتيم على جمالية الشعر وفعاليته في التواصل مع الجمهور، مقترحًا دراسة تطبيقية على حجازيات الشريف الرضي لتحليل هذه العناصر الشعرية بشكل معمق.

الكلمات المفتاحية: حجازيات - الشريف الرضي - أمير حج العراق - شاعر الحجازيات

المقدمة

استحوذت القصيدة الشعرية على اهتمام كبير في الأدب العربي على مدى العصور، حيث كان النقاد قديمًا وحديثًا ينظرون إليها بعيون متفتحة. واستعرض الباحثون العديد من الجوانب لتحليل ونقد الشعر العربي، حيث يتفحصون أحيانًا جماليات اللغة، وأحيانًا أخرى يدرسون الصورة الفنية، وهناك أيضًا من يتركز على بنية القصيدة نفسها،

وقد حرص النُّقَّاد والباحثون على تقييم ونقد جوانب حسن الاستهلال، أو بما يسمَّى (مطلع القصيدة الشعرية)، وكذلك دراسة حسن الختام؛ إذْ عُدَّ الشاعر المجيد هو مَن يُحسِن الابتداء، وكذلك من مؤهِّلاته الفنية حسن اختتامه لأبيات قصيدته.

وليس خافيًا أنَّ لمطلع القصيدة أثرًا بارزًا في اجتذاب المتلقي، وهذا شيء بديهي في كلِّ ما يواجه النفس الانسانية، وقد جاء في الأمثال ((الضربة الأولى نصف المعركة)) [(1)]، والقصيدة معركة يخوضها الشاعر بهدف إيصال مشاعره وأحاسيسه وفكره إلى المتلقّي بأسلوب أدبي فني.

وللنقاد قدامى ومحدثين وقفات كثيرة عند أهمية المطالع في النصوص الأدبية[(2)] عامة وفي الشعرية منها خاصة، يقول ابن رشيق (456هـ): (إنَّ الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداءات شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يُستدَل على ما عنده من أول وهلة). [(3)]

أمَّا ابن الأثير (637هـ)، فيشير إلى أهمية المطلع مؤكِّدًا (أن يكون مطلع الكلام من الشعر دالاً على المقصود منه) [(4)].

هذا ما حكاه السابقون عن أهمية المطلع للقصيدة، ومكانته في تحديد وتأطير للمقصود من هذه القصيدة كعمل فني متكامل، له أبعاده في سياق العمل الشعري.

أمَّا المحدثون، فقد أكَّدوا أهمية المطلع للقصيدة، وأثره في النص الشعري، ووجدوا أنَّ الشاعر المُلْهَم هو ذلك الشاعر الذي ينجح في بدء العمل الفني بما يجذب انتباه القارئ، يقول الدكتور مصطفى سويف في المطلع : (إنه مفتاح العمل الأدبي برمته، وهو جواز المرور الى عالم الإبداع الشعري وقد يكون في بدايته تركيبًا معيناً، يتغنَّى به الشاعر؛ ليستدرج به سلسلة من التراكيب الفنية)[(5)].

على حين يذكر الدكتور يوسف حسين بكَّار شروطًا أربعة[(6)] للمطلع إذا جاء موافقًا لواحد منها كان جيدًا، وإلاَّ فهو رديء قائلاً: إنَّ هذه الشروط قد حدَّدها النقَّاد، وهي باختصار:

1. أن يكون فخمًا، له روعة وعليه أبَّهة.
2. أن يكون بعيدًا عن التعقيد.
3. أن يكون نادرًا.
4. أن يكون خاليًا من المآخذ النحوية.

ومن خلال المطالعات والقراءات، يبدو إحساس الشعراء بأهمية المطلع (وخير دليل فارق الجودة الشعرية بين مطالع القصائد وبقاياها من الأواسط والأواخر في القصيدة الواحدة). [(7)]

وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن المطلع يعدُّ مقياسًا للجمال في القصيدة من خلال انسجام المعاني مع تلك المقدمة أو تنافرها، وهذا يعني أنَّ أيَّ اختلاف بين مفردات القصيدة ومطلعها يشير إلى تنافرها... لذا يمكن أن تستنتج أنَّ أيَّ اختلاف بين مفردات القصيدة ومطلعها يشير إمَّا إلى عبثية الشاعر أو عدم الصدق في عواطفه.

في ضوء ذلك، اهتم النُّقَّاد والباحثون بمطالع القصائد الشعرية، ووصفوا منها المحمود والمقبول، كما صنَّفوا منها المطالع الرديئة، فقالوا بأنّ هنالك مطالع حسنة، وأخرى رديئة، تدل على سوء الذوق الفني لدى الشاعر...

وقد اهتم النقاد القدامى بحسن المطلع كثيراً، أو ما سموه (حسن الابتداء) أو أسموه (براعة الاستهلال) ، وانطلقوا في دراستهم للمطلع وتوجيه الشعراء فيه الى عدة اعتبارات وشروط صنفوا من خلالها المطالع إلى جيد ورديء، وتوسَّعوا في دراساتهم تلك بالحديث عن المطالع الجيدة، حتى أنَّ حازم القرطاجني (ت684هـ) حاول تصنيفها إلى ثلاث رتب.

---

(1) انظر: حسين، عبد الرسول، صحيفة الوسط، العدد 827 - الجمعة 10 ديسمبر 2004م الموافق 27 شوال 1425هـ.

(2) بسيوني عبد الفتاح، علم البديع، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 1998م، 214.

(3) القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1401هـ، 218/1.

(4) ابن الأثير، المثل السائر، ت: أحمد الحوفي، وابن طبانة، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، 96/3.

(5) سويف، مصطفى، الأُسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1951م، 229.

(1) يوسف حسين بكار، بناء القصيدة العربية، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1982م، 206.

(2) ريكان إبراهيم، نقد الشعر في المنظور النفسي، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1989م، 76.

وأمَّا المطالع الرديئة، فقد تنبَّه الى تفسيرها من القدماء ابن رشيق الذي أرجعها إلى حالات ترجع الى الشاعر نفسه، يقول ابن رشيق: (وإنما يُؤتى الشاعر في هذه الأشياء العيوب. أمّا من غفلة في الطبع وغلظ، أو من استغراق الصنعة، وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أين ذهب) [1].

أمَّا المطلع عند المحدثين، فهو المفتاح الذي تعتمد عليه القصيدة على حدِّ تعبيرهم (فإذا وقع هذا المفتاح في يد الشاعر، هجم على موضوعه). [2] والمفتاح الذي يعنيه هنا (البداية المولَّدة، والمهيمنة، فهي ليست قوة إشعاع أو تثوير للنص، وإنما هي الحاضنة لما سيحدث في النص) [3].

وقد يكتسب المطلع عند أحد المحدثين أهمية كبرى، فقد عدّ أحمد رامي البيت الاول من القصيدة، هو القصيدة برمتها، إذ قال: (وأنا في العادة أبدأ القصيدة ببيت، أو عدد ضئيل من الأبيات يركِّز كلَّ تجربتي، وبعد ذلك أقصد إلى تخريج كلَّ ما يمكن من التخريجات من هذه التجربة المركَّزة في البيت الأول) [4].

من خلال ما سبق، يتبيَّن للقارئ أهمية مطلع النص الأدبي؛ سواء من منظور القدماء أو من منظور المحدثين، فجميع النقَّاد على أنَّ العمل الأدبي مرآته الأساسية هي مطلع القصيدة الشعرية.

وكما أنَّ لمطالع القصائد أهميتها التي لا خلاف عليها، فإنَّ الخواتيم ذات طبيعة خاصة، تؤكِّد على حسن اختتام الشاعر لعمله الفني المنسوج، وتقرُّ بشاعريته كما أقرَّت بحسن استهلاله.

فالخاتمة ركن أساسي في هيكل القصيدة، لذا فإنَّ أهميتها لا تقل عن أهمية المقدمة، لأنها آخر ما يبقى في ذهن المتلقِّي، وقد بيّنَ النقَّاد العرب القدامى ذلك، يقول ابن رشيق القيرواني (ت456هـ) : (وخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق في النفس؛ لقرب العهد بها فإن حسنت حسُن، وإن قبحت قبُح) [8].

وبالبحث عن جذور اللفظ (ختم)[9] في المعجم، تجده يدور حول عدة معانٍ، نجد أنَّ أقربها إلى الفهم الآنف للخاتمة في المعنى (الانتهاء ، والوسم)، وهذا ما أشار إليه جاسم بقوله: "فإذا كان الانتهاء يؤشِّر ملمحًا شكليًا من ملامح الخاتمة، يؤذن من الناحية الفيزيائية-السمعية أو البصرية- بنهاية القصيدة، واكتمال ما تريد أن تبوح به، فإنَّ الوسم ملمح يمكن اعتباره مؤشرًا نفسيًا يشير إلى وصول المبدع بقصيدته إلى الذروة التي تسِم القصيدة، بكلمات هي آخر ما يريد قوله بعد أن أحسَّ بنشوة الاكتمال، وهذا ما يجعلها بالتالي آخر ما يتبقَّى في ذهن المتلقي"[10].

وكثيرًا ما كانت القصيدة تؤكِّد نجاحها ورسوخها بذاكرة المتلقِّي؛ ويكون نجاحها قائمًا على ذكاء الاختتام فيها، واعتمادًا على ما حوته الخاتمة من تميُّز إبداعي، جعلها تفرض نفسها كقيمة جمالية على ذاكرة المتلقِّي، فترسخ في نفسه، "فكما كان الشاعر حريصًا على جذب المتلقِّي بكلمته الشعرية الأولى، ويحاول شدَّ وثاقه الفكري إليه، فإنه مدعو لأن لا يفترق عن هذا المتلقِّي؛ حتى يصلا سويةً إلى نهاية المطاف، خاتمًا في قلبه آخر إضا ءة شعرية هي التي تكون الفيصل في الحكم على نجاح القائل في خلق التفاعل الشعوري بينه وبين الآخرين" [11].

وبناءً على ما سبق، فإنَّ الاختتام سمة أسلوبية، وآلية عمل تختلف من شاعر إلى آخر، وحتى من قصيدة إلى أخرى ربما عند الشاعر الواحد، لذا يمكن القول أنَّ تحديد الخاتمة في أية قصيدة هو تخمين قرائي بالدرجة الأساس، يتَّكئ على قراءة دقيقة ومعمَّقة

---

(1) أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ت: أحمد أحمد بدوي، الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة ، ط3، 2010م، ص285.

(2) إناء الشعر، 64

(3) ياسين نصير، الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، دار نينوى، دمشق، ط1، 2009م، 16 -17.ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، ت: عصام شقيقو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأخيرة، 2004م، ص3.

(4) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، 223.222.

(1) العمدة، 217/1.

(2) ذكرها ابن منظور بقوله: ختم الشيء يختمه ختمًا بلغ آخره، وختم الله له بخير. وخاتم كلِّ شيء وخاتمته: عاقبته وآخره. واختتمت الشيء: نقيض افتتحته. انظر: لسان العرب، 164/12.

(3) جاسم محمد جاسم، القصيدة العمودية: جماليات الخاتمة، قراءة في نماذج الشعر الموصلي المعاصر، مجلة بيت الشعر، https://sites.google.com/site/beetalsheer

(4) قحطان رشيد صالح ، الخاتمة في شعر المتنبي ، مجلة المورد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ع1، 2004م، ص 28.

وذائقة نقدية عالية؛ لجسِّ بدايات الفعل الختامي في القصيدة، ويتم ذلك بملاحظة الجو العام للقصيدة، ومتابعة سير الرؤية الشعرية فيها.

وخلاصة القول أنه يمكن القول بأنَّ الخاتمة نشاط يُدير ظهره لإمكانية الحصر الكمي، ويكتفي بكونه نهاية العمل وسمته التي تسِم ذهن المتلقِّي بعد أن يكون قد نسي –ربما- الأعمَّ الأغلب من القصيدة ككلٍّ؛ لأنها أي الخاتمة (قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع).[12]

يمكن للباحث الآن دراسة المطالع والخواتيم في حجازيات الشريف الرضي، مبتدئًا بالمطالع لدى الشريف الرضي، ثم يردِف الدراسة بالوقوف على خواتيم الشاعر بالدرس والتحليل.

المبحث الأول: الشريف الرضي، ومفهوم الحجازيات

إذا كان هذا المبحث سيتناول الحجازيات ومفهومها لدى الشريف الرضي، فإنَّ ذلك بالضرورة يقتضي أن يُدرَس هذا المبحث من خلال مطلبيْن أساسيْن، وهما:

المطلب الأول: الشريف الرضي

الشريف الرضي، شاعر عباسي بارز، حظى بصيت كبير، وتميَّز بفن راقٍ في الكتابة، وأمَّا نسبه وتسميته، فهو (أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي مناقب أبي أحمد الحسين بن موسي بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب)[13].

أمَّا عن مولده وسماته، فقد (ولد في بغداد سنة ٣٥٩هـ)(14) وفي وصفه وبيان صفاته ومناقبه، فمن أفضل ما قِيل عنه أنه: (أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق، يتحلى مع محتده الشريف ومفخرة المنيف بأدب ظاهر وفضل باهر وحظّ من جميع المحاسن وافر)[15].

النشأة والتربية الأولى:

نشأ في أسرته العظيمة والقيّمة التي تميزت بالتقوى والورع والعلم والمنزلة الدينية والسياسية والاجتماعية، وزوَّد ثقافته من المحيط المفعم بالنقباء والعلماء والأدباء؛ هم أسرة أبيه المشهود لهم بالتقوى والعلم والإيمان والأدب، وأسرة أمّه فاطمة بنت الناصر الكبير صاحب الديلم.

كان أبوه ذا إرادة قوية وأصالة رأي، عظيم المنزلة عند الخلفاء العباسيين والبويهيين، تولَّى نقابة الطالبيين وإمارة الحج وديوان المظالم مرات، وكان فيها مثال العالم التقي العادل.

كان أخوه الشريف المرتضي لقبه علم الهدى وذو المجدين، وهو كان عالمًا من أعلام الفقه واللغة والشعر والسياسة.

المناصب السياسية في حياة الشريف الرضي:

1. نقابة الطالبيين والنظر في أمور الطالبيين.
2. إمارة الحج والنظر في المظالم.
3. العلاقة القوية بالحكماء والسلاطين لإصلاح أمور الناس.

السيرة العلمية:

- تتلمذ الشريف على علماء عصره في بغداد، وكانت علاقته بهم تتَّسم بالمحبة والاحترام والإعجاب.
- اشتغل بالعلوم والفنون في حضرة الأساتذة الكبار نحو الشيخ المفيد، أبي على الفارسي، أبي سعيد السيرافي، عبد الجبار بن أحمد الشافعي المعتزلي، أبي حفص بن أحمد الكناني هذا قليل من كثير ممَّن تتلمذ عليهم الشريف الرضي؛ إذ إنه أخذ العلم عن الجميع دون إحراج.
- فكان شيوخه من مختلف المذاهب الدينية؛ ولذلك نشأ واسع العقل رحب الصدر غزير المعارف، بعيدًا عن التعصب الديني.

---

(1) العمدة ، 1/ 239 .

(1) الثعالبي،١٩٧٣م، 131/3.

(2) المصدر نفسه، 131/3.

(3) نفسه: 132/3.

- وبلغ من اهتمام الشريف بالعلم والمتعلمين أنه اتَّخذ لتلاميذه عمارة سمَّاها دار العلم.
- وأرصد لها مخزنًا فيه جميع حاجاتهم من ماله ولم تكن دار العلم مدرسة فقط بل كانت مكتبة عامرة تضم ألوف المجلدات.

السيرة الأدبية:

- كان الشريف الرضي كاتباًً مفكّراً فقيهاً عالماً لغوياً وشاعرًاً.
- مؤلفاته نجوم ساطعة في ذلك العصر وفي كل عصور وهذه المؤلفات المتوفرة عندنا؛ منها ١- نهج البلاغة ٢- الرسائل ٣- تلخيص البيان في مجازات القرآن ٤- المجازات النبوية ٥- حقائق التأويل في متشابه التنزيل وديوان شعره المفخمة في أغراض المختلفة الشعرية.
- حظي شعر الشريف بإعجاب الشعراء والأدباء والنقاد قديماً وحديثاً وأثار اهتمام كثير من شخصيات عصره؛ لما فيه من إبداع وروعة وجمال[16] .

وهذه جملة من العلوم بلغ فيها الشريف الرضي مكانة كبيرة في وسط ذاع فيه سيط العلماء والأئمة والفقهاء، من أجل هذا كله، فقد نال استحسان الثعالبي والخطيب البغدادي، فحملت مؤلفاتهما من ذلك الثناء ما يطيب ذكره:

- يقول الثعالبي عنه: (ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل وهو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق، ثم هو أشعر الطالبيين، من مضى منهم ومن غيرهم على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق، فشعره عالي القدح، ممتنع عن القدح، يجمع إلى السلاسة متانة وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معان يقرب جناها ويبعد مداها)[17].
- وأمَّا الخطيب البغدادي، فهذه شهادته فيه: (وبشهادة جماعة من أهل العلم والأدب وهو معهم أنه أشعر قريش)[18].
- ثم جاء ابن خلكان، فقال أيضًا عنه: (وله ديوان شعره كثير يدخل في أربعة مجلدات)[19].
- وقد اهتم ابنه عدنان بشعره وأبو حكيم الخبري رتَّب ديوان الشريف على الأغراض والفنون المختلفة وعمد الناس بعد أبي حكيم إلى ترتيب قصائد الديوان على القوافي حسب حروف الهجاء دون النظر إلى الأغراض.

أغراض شعره:

والأغراض التي نجدها في شعر الشريف هي:

- المدح.
- الرثاء.
- الغزل.
- الفخر والهجاء.
- الوصف.
- والشكوى.
- العتاب.
- الحكمة والمثل.
- والمجازيات ضرب من ضروب الغزل لدى الشريف الرضي، اشتهر بها، فإنّه تميّز بعاطفة الحب وعاطفة الحنين والعفة والأصالة.

وفاته:

انطفأت شعلة حياة الشخصية العظيمة مبّكرًا؛ حيث مات الشريف الرضي ولم يتجاوز السابعة والأربعين من عمره، فقد ذكرت أكثر المصادر أنه فارق الدنيا (صباح يوم الأحد السادس من شهر محرّم سنة ٤٠٦ هـ، ٢٦ حزيران ١٠١٥ م)[20]، ودُفن في داره بمحلة الكرخ ثم نُقل إلى كربلاء، ودفن عند ضريح الامام الحسين –رضي الله عنه وعن أبيه وجده-.[21]

(1) عز، فاطمة صلاحي، حجازيات الشريف الرضي، في رحاب نهج البلاغة، http://arabic.balaghah.net/.

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر، 131/3.

(2) الخطيب البغدادي، سير أعلام النبلاء، 472/2.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 45/4.

(1) ابن خلكان، المصدر السابق، 48/4.

(2) الأميني، عبد الحسين ،١٤١٦هـ، 185/4.

المطلب الثاني: الحجازيات

لون من ألوان الشعر العربي في فترة من فترات التاريخ؛ ألا وهي فترة العصر العباسي الأول الزاخر بالازدهار في كل أبواب العلم، وطبعيٌ أن تكون هذه الأعمال الشعرية الأدبية من الفنون التي ارتبطت بالمكان، فواضحٌ من لفظة "الحجازيات" أنَّ هذا الأدب ممزوجٌ نكهته بالحجاز، مرتبطٌ سبكه بعبق الأراضي الحجازية، متَّصلٌ فنه بآداب معينة، وبقيم ثابتة.

أمَّا عن طبيعة شعر الحجازيات، فنجد من ذلك في الأعلام ما وصف شعر الشريف الرضي، وأكَّد على شاعريته ورقته: (تعتبر حجازيّات الشريف الرضي أرقّ شعره، وأكثر التصاقاً بالقلوب لِعذوبتها ففيها رنّة الأسى وعاطفةٌ وجدانية غائمة متشحةٌ بالحزن، وهذا الفن من أقرب فنونه إلى البساطة البدويّة التي تتجلّى في الشعر العذري، وعند عشّاق الأعراب، وهذا الشعر معرضٌ من معارض الجمال يتغنّى بالعفاف، وكثرة التأوُّه، ويمتاز بالوفاء للحبيبة، فلا يرضى القلب بديلاً عنها) [(22)] .

وقد بنى الزركلي رأيه السالف عن الحجازيات؛ متوسِّمًا فيها محور العفة، وما أحوج المتلقي العربي إليها في هذا الزمن الذي وُجهت فيه الرسائل المرئية والمسموعة لتقضي على الجانب الروحي في الإنسان، وتجعله عبدًا لغرائزه وانفعالاته التي تلغي إنسانيته، على حين أن هذه الأشعار تسمو بالروح، وتجعل المتلقي يحس بإنسانيته؛ لأن العفة الملازمة لها تشده إلى الأصالة، وتجعله يتمسك بشخصيته، ويحفظها من الانزلاق في مستنقع الشهوات.

ولعل هذه الميزة التي تمتَّع بها الشريف الرضي كانت سمة بعض الشعراء الذين كانوا ينسجون على منوال الشريف، أو بعض الشعراء الذين أخذوه قدوةً، فعملوا على محاكاته، واتِّباع منهجه، وسلوك مسلكه.

موقف النُّقَّاد من حجازيات الشريف الرضي:

تفاوت إعجاب النُّقَّاد بشعر الشريف الرضي بين الإعجاب والإعجاب الشديد الواصل لحدِّ المبالغة فيه، فمنهم مَن زاد إعجابه بشعره ونسيبه، وأشاد برقّة شعره الغزلي، وجعل الحجازيّات من فرائد الشعر العربي؛ فها هو ابن أبي الحديد يقول: (إنَّ قصد الرقّة في النسيب أتى بالعجب العجاب).[(23)]

ولعل تبريره لهذا الإعجاب الشديد نابع من انسيابيّة الحجازيّات وعذوبتها التي تحرّك العواطف، وتُثير لواعج النفس.

أمَّا ممَّن بالغ في مدحه والثناء على شعره، بل والافتنان به الباخرزي، والذي يرى أنّ الشريف (إذا نسبَ انتسبت رقّة الهواء إلى نسيبه، وفاز بالقدح المعلّى من نصيبه). [(24)]

فحين نطالع هذا الحكم النقدي الذي أطلقهُ الباخرزي، نجده عبارة عن حكمٌ تذوّقي يعلّل من خلال الأثر الذي تركته الحجازيّات في نفسيته، وفي قوله: "إذا نسب انتسبت رقّة الهواء إلى نسيبه" تأكيدٌ على الجانب النفسي الذي تقدّمه الحجازيّات للمتلقّي؛ إذْ تجعله يتألَّم لألم الشريف وفي "رقّة الهواء" دليلٌ على أنَّ الحجازيات فيها حالةٌ من الصراع النفسي بين العقل والقلب؛ فعلى الرغم من تأثُّره القلبي، وما يظهر في شعره من مبارحة الهوى والحب، إلاَّ أنه يغالب ذلك بعقل يعي مكانته الدينية، فيعود أحيانًا إلى تحكيم العقل.

وإنْ وُضِعنا في حيرةٍ بين مَن يرون صحة ما سبق، ويشهدون له بهذا الشعر الرقيق والنسيب العفيف، وبين مَن هاجموه مستنكرين عليه ترك نفسه لهواها في مقام كهذا؛ وهو أمير الحج، وعالم له وزنه، فإننا نبيّن الرأي والرأي الآخر في هذا المقام على النحو التالي:

الرأي الأول:

يميل أنصار هذا الرأي إلى القول بامتياز الشريف على أقرانه، وسموّ شعره وعفته، واستدلوا بشهادة الباخرزي "فاز بالقدح المعلّى من نصيبه" فهو يدلّ على أنّ الشريف يمتاز عن بقية الشعراء الذين تغزّلوا في الحجاز كالعبّاس بن الأحنف، وابن أبي ربيعة؛ لأنّ الشريف عاش الحجاز شكلاً ومضموناً ،على حين أنّهما بعيدان عنه؛ لأنّ الشريف أمير الحج ويتمتّع بخبرةٍ ناتجةٍ عن تمثّله للجوانب الفقهيّة المتعلّقة بأركان الحج، والأماكن المقدّسة التي يمرّ بها الحاجّ أثناء تأديته لمناسك الحج، إضافةً لعدم تصريحه باسم محبوبته ولجوئه لاستخدام الرّمز، وتمثّله للعفاف والتقى ومحاورته للزمان والمكان بدلاً من حوار المحبوبة.

كلّ ذلك يجعل الشريف يمتاز عمّن سبقه من الشعراء الذين تغزّلوا بالحجاز، وهذا التميُّز نابعٌ من التجربة الحياتيّة التي مرّ بها الشريف، والمخزون الثقافي الدالّ على اطلاعه على الشعر العربي القديم، وقد اتّضح هذا المخزون من خلال القراءة لميميّته.

(1) الزركلي، خير الدين، كتاب الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط10، ١٩٩٢م، 7/10.

(2) الأمين، السيد محمد، أعيان الشيعة، ت: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت،1983م، 51/9.

(1) الدملخي، إبراهيم، الألوان نظرياً وعملياً،- مطبعة الكندي، حلب، ط1، 1983م، ص33.

إنَّ القارئ الممعِن لشعر الشريف الرضي، يلحظ التأثُّر بالشعر العربي القديم، ولكنّ التأثُّر لا يعني ذوبان الشريف في المخزون الشعري السابق له، بل إنَّ له نكهته الخاصة في الحجازيّات؛ لِما فيها من تحليلٍ نفسيٍّ صادقٍ لِما يُحسّ به الشاعر.

ويذهب الباحث هيثم جرود إلى أنّ حجازيّات الشريف تحظى بمكانةٍ مثلما تحظى غزليّات العبّاس بن الأحنف لِما في تلك الحجازيّات من رِقَّةٍ شعوريَّةٍ وفنيَّةٍ وواقعيّةٍ في الألفاظ والصور واحتفالها بالأثر الديني، ولا سيما فيما يتعلّق بموسم الحج ممّا يجعلها محطّ تطلُّع الوسط الشعبي للمسلمين، ولا يقلّ عن ذلك عناية حجازيّاتهما بالحكم والأمثال وذكر العادات المتّبعة في الوسط الاجتماعي العربي).[25]

الرأي الثاني:

يرى بعض النُّقَّاد أنَّ الشريف الرضي جاوز الصواب في تركه لما هو أنبل إلى ما هو أقل نبلاً، حيث إنه على الرغم من مكانته وطبيعة الوجهة الدينية كأمير للحج عن بلاده، يركن إلى هوى النفس، بل ويصف لوعته واشتياقه إلى امرأة في أطيب بقاع الأرض، وإن لم يصرّح باسمها!!

التشيُّع في حجازيات الشريف الرضي:

يرى الدكتور إحسان عبّاس أنّ (حجازيات الشريف لم تعكس انتماءه الشيعي بوضوح ولعلّ قصيدته (يا ظبية البان) –محل الدراسة- التي قالها في مقتل الحسين دليلٌ على ذلك).[26]

على الوجه الآخر، نجد مَن يرى غير ذلك[27]، ويختلف مع من قالوا أنّ الحجازيّات لم تعكس انتماء الشريف الشيعي بوضوح؛ لأنّ القراءة المتمعّنة لها، تظهر المذهب الشيعي الذي ينتمي إليه الشريف؛ لأنّ ظاهرة البكاء[28] تلازمها؛ هذه الظاهرة تتعلّق بمقتل الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام والشريف حسينيٌّ كما أنّها تتعلّق بما آلت إليه أحوال آل البيت عليهم السلام.

ومن ناحية ثانية، فإنَّ الشريف يذكر اللباس الأسود[29] في الحرم، هذا اللباس يتعلّق بآل البيت؛ لأنّ السواد[30] يحمل الحزن والأسى على ما آلَت إليه حالهم، كما يحمل صفات الهيبة والجلال والوقار المتّصل بهم.

والشريف في ميميّته التي قرأناها يُشير إلى فكرة عودة الحبيبة، هذه الفكرة أشار إليها في الحجازيّات في عدّة مواضع[31].

وفكرة عودة الحبيبة هي فكرة تتعلّق بعودة المهدي الذي هو فيما يعتقد من آل البيت لإشارة النبي (إلى ذلك المهدي من أهل بيتي).[32]

وتلقي هذه القراءة النقدية الضوء على تشيُّع الشريف الرضي، من خلال استنباط ذلك من تحليل بعض أبيات الميميَّة، فهو في ميميّته يتحدّث عن محبوبته، ولكن سرعان ما يعدل عنها إلى أحبّةٍ كثُر، والسؤال الذي يطرح نفسه مَنْ هُم الذين لا يرضى بديلاً عنهم، في قوله:

لا تطلبنّ ليَ الأبدالَ بعدهمُ فإنَّ قلبيَ لا يرضى بغيرهِمِ

يرى "حقاني" أنَّ المشار إليهم في البيت السابق إنما هم آل البيت الذين يتعلّق بهم الشاعر، وهذه الظاهرة موجودةٌ في حجازيّاته [33]، فهو يُفضّل النازلين بأرض العراق لأنّها مثواهم، وهو لا يرى شيئاً حسناً منذ أن فارقهم[34] ، كما أنّه يشير إلى مكانته في قومه.[35]

---

(1) الصعيدي، عبد المتعال، البلاغة العالية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٥هـ، ص42.

(2) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1981م، 35/3.

(3) حقاني، نادر عبد الكريم، قراءةٌ نقديّةٌ في حِجازيّاتِ الشريف الرضي –ليلة السفح أنموذجًا- ، مج23، العدد [89]، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2003م، ص ص. 54-81.

(4) الجرود، هيثم، تطور فن الحجازيات إلى نهاية القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير قدّمت بجامعة حلب، 2001م، ص77.

(1) الجواري، أحمد عبد الستار، الحب العذري نشأته وتطوره، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٤٨م، ص61.

(2) الكيلاني، محمد سيد، دراسة في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٩٦م، ص22.

(3) الباخرزي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تح: محمد التونجي، مطبعة الحياة، دمشق، ط1، 1971م، 56/1.

(4) ديوان جرير، شرح محمد بن حبيب، تح: نعمان أحمد أمين طه، دار المعارف، مصر، ط2، ١٩٧٦م، ص87.

(5) ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت، ط1، ١٩٦٦م، ص98.

(6) ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥١م، ص103.

(7) ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م، ص88.

ولا شكَّ أنَّ ما سبق ينقل إلينا وجهتي نظر مختلفتيْن حول ماهية التشيُّع في حجازيات الشريف الرضي، وأيًّا كان موضع الصواب في الرأي، فإنَّ كل ذلك مجرد تحليل واستنتاج من بين السطور؛ فالقارئ المتأمل ربما يميل إلى هذا، أو يرجِّح ذاك، فلو أخذنا واحدة من الأدلة وليكن (اللباس الأسود)، لربما قال البعض هو مجرد لباس يميز مَن له الإمارة؛ ليكون له التفرُّد ليعرف بين موكب الحجيج، في حين أنَّنا نجد مَن يرى أنه من لوازم التشيُّع.

وعلى كلِّ حال، فإنَّ ما يلزمنا في مقامنا هنا هو الوقوف على القصيدة الأدبية وبنائها لدى هذا الشاعر الملهَم، واستطلاع الرؤية الفنية في بنائه لحجازياته.

المبحث الثاني: مطالع حجازيات الشريف الرضي

بعد الاطلاع على ماهية المطالع، وتعريفها لدى النقَّاد قديمًا وحديثًا، والجزم بأهمية المطالع الشعرية في القصيدة الفنية، يتسنَّى للباحث الوقوف على بعض أعمال الشريف الرضي في حجازياته الشهيرة، من خلال دراسة أغراضها الفنية؛ لنراها ما بين الوقوف على الأطلال، والنسيب -وما أكثره في أعماله من خلال حجازياته التي عرفها الرائح والغادي-، والوصف،

أولاً: غرض الغزل العفيف

يتصدَّر تلك القصائد قصيدة يصف فيها معاناته من تباريح الشوق لامرأة تعلَّق بها قلبه في منى بجوار الخيف، فجلس يناجي ليالي الخيف، داعيًا له، لنقف على أول المطالع عنده، والتي اختارها الباحث من الحجازيات[36]:

أَلاَ يَا لَيالِي الخَيْفِ هلْ يرْجِعُ الهَوَى إِلَيْكُنَّ لِي لاَ جَازَكُنَّ نَدَى القِطْرِ
فَيَا دَيْنَ قَلْبِي مِنْ ثَلاَثٍ عَلَى مِنَى مضَيْنَ ولَمْ يُبْقِينَ غَيْرَ جَوَى الذِّكْرِ

هذا مطلع رقيق، فيه يناجي الشاعر ليالي الخيف بمنى، حين مكث فيها عدة أيام، فوجد فيها ما وجد من الغرام والهيام، داعيًا للمكان بالسقيا، وألاَّ يفوته خير المطر العميم.

وفي البيت الثاني، يتحسَّر على ما يتحمله قلبه من الأسى، بعد ثلاث ليالي مرَّت به في منى، ولم يبقَ منها سوى حرارة الشوق وتذكُّر الحبيب.

ثانيًا: ومن الغزل

ومن الوصف إلى الغزل بشقَّيْه، ولعل المطلع عفَّت نبرته وظهرت فيه لوعته، يقول[37]:

نظَرْتُكِ نَظْرَةً بالخِيفِ كانَتْ جَلاَءَ العَيْنِ مِنِّي بَلْ قَذَاهَا[38]
وَلَمْ يَكُ غَيْرَ مَوْقِفِنَا فَطَارَتْ بِكُلِّ قَبيلَةٍ مِنَّا نَوَاهَا

في هذا المطلع، تجد الشاعر وهو يتناول الشاعر موقفًا خاطفًا، رأى فيه امرأةً جميلة افتُتِن بها في منى، بجوار مسجد الخيف، إلاَّ أنَّ الوقت لم يسعفه، وارتحل الحجيج كلٌّ إلى قبيلته ومكانه، وقد رمدت عينه من ألم الافتراق والبعاد الذي جاء سريعًا.

هكذا يتبيَّن للباحث كيف كان للغزل مكانته عند الشريف الرضي، دونما الخوض في عذريته وفحشه، إلاَّ أنَّ الأغلب أنه خاض ميدان الغزل، وإن كان جلُّ شعره يتميَّز بالتلميح دون التصريح، فلم يذكر اسم محبوبة؛ وربما كان وازعه في هذا المكان والمكانة، فكلاهما أعطاه جرس إنذار شديد.

ثالثًا: النسيب

ومن النسيب الرقيق في شعر الشريف الرضي، قوله[39]:

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي الحُبَّ حَتَّى تَعَرَّضَتْ عُيُونُ ظِبَاءٍ بالمَدِينَةِ عِينِ[40]
فَوَاللهِ مَا أدْرِي الغَدَاةَ رَمَيْنَنَا عَنِ النَّبْعِ أمْ عَنْ أَعْيُنٍ وَجُفُونِ
بِكُلِّ حَشًا مِنَّا رَمِيَّةُ نَابِلٍ قَوِيّ عَلَى الأَحْشَاءِ غَيْرِ أَمِينِ

---

(36)مبارك، زكي، عبقرية الشريف، كلمات عربية للترجمة والنشر، مدينة نصر القاهرة، 2013م، ص326.

(37) عبقرية الشريف، ص313.

(38) ما يسقط في العين والشراب. و (قذيت) عينه من باب صدي سقطت فيها (قذاة) فهو (قذي) العين على فعل (أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، المكتبة العصرية، بيروت- صيدا، ط5، 1420هـ، ص349.

(39) عبقرية الشريف، ص 315.

(40) رجل (أعين) واسع العين بيِّن العين، والجمع (عين) والمرأة (عيناء) (مختار الصحاح، 223).

في مطلع هذه الأبيات، يأتي المطلع في النسيب، حيث يعرف الشاعر الحب لأول مرة –حسب روايته- إلاَّ بعد وقوع عيناه على الجواري الجميلات في المدينة، ثم يقسم أنه رُمِي بعيون جميلة وجفون واسعة نجلاء، وقد أثَّر ذلك في الشاعر، وكأنَّ النظرات رمية رامي بنبل رشق في الأحشاء بقوة وتحكُّم.

رابعًا: ومن النسيب

يصوِّر الشريف الرضي عشقه وغرامه بغزاله المتحدِّث عنها في الأبيات القادمة، وإن كان في مناسك قدسية، لها احترامها (في طريقه إلى منى)، يقول [41]:

تذَكَّرتُ بَينَ المأْزَمَيْنِ[42] إِلَى مِنَى	غَزالاً رَمَى قَلْبِي وَرَاحَ سَلِيمَا
لَئِنْ كُنْتُ أَسْتَحْلِي مَوَاقِعَ نَبْلِهِ	فَإِنِّي أُلاَقِي غَبَّهُنَّ[43]أَلِيمَا
أَصَابَ حَرَامًا يَنْشُدُ الأَجْرَ حِسْبَةً	فَمَا عَادَ مَأْجُورًا وعَادَ أَثِيمَا
فَلَوْ كَانَ قَلْبِي بَارِئًا مِنْ أَلِمَّتِهِ	ولَكِنَّ أَسْقَامًا أَصَبْنَ سَقِيمَا

في هذا المطلع الشعري، تشهد الأبيات للشريف الرضي شدة تأثُّره برؤية الغزال الذي علق به قلبه بين المأزمين من المشاعر في الطريق بين منى وعرفات، فأصيب قلبه بالصبابة والهوى، وراح الغزال لم يصب بأذًى، ويقرِّر أنه وإن كان يستعذب ما لاقى من شوق وعشق، إلا أنّ ذلك أصابه فسقم وتعب.

ثم يقرِّر أيضًا أنَّ محبوبته إن كانت آذته بنظراتها، وراحت سليمة، فقد ارتكبت إثمًا في جانب هذا المتيَّم الذي أُوذِي بالأسقام من جرَّاء ما أصابه.

خامسًا: ومن ألطف النسيب

لمَّا كان أجمل شعر الشريف الرضي في النسيب، مع تعدُّد المقاطع الشعرية فيه، تستزيد الدراسة بالوقوف على نص اشتهر لديه، وسار مضرب المثل في المشرقيْن والمغربيْن، وتلك قصيدته المصدَّرة بقوله (يا ظبية البان ترعى في خمائله...) والتي مطلعها [44]:

يا ظَبيَةَ البانِ تَرعى في خَمائِلِهِ[45]	لِيَهنَكِ اليَومَ أَنَّ القَلبَ مَرعاكِ
الماءُ عِندَكِ مَبذولٌ لِشارِبِهِ	وَلَيسَ يُرويكِ إِلّا مَدمَعي الباكي
هَبَّت لَنا مِن رِياحِ الغَورِ رائِحَةٌ	بَعدَ الرُقادِ عَرَفناها بِرَيّاكِ
ثُمَّ اِنثَنَينا[46] إِذا ما هَزَّنا طَرَبٌ	عَلى الرِحالِ تَعَلَّلنا بِذِكراكِ

في هذا المطلع الشعري الرائع محاكاة رائعة في النسيب لما كان من شعر الكبار من شعراء الجاهلية، في استهلال بنداء واصف للمرأة التي هام بها الشريف بظبية تمرح في أرض رحبة، وجعل قلبه يتَّسع لها فهو ملعبها تمرح فيه ما تشاء.

ثم ينتقل في البيت التالي لتقديم أغلى ما يملك، فيبيّن أنها إن كانت تجود بالماء الزلال للشارب، فإنه يرويها بدموعه وهي أعزُّ ما يملك.

وفي البيت الثالث، يصف ما كان من مسببات ذلك العشق والهوى؛ أنه اشتمَّ من جوف الوادي رائحة طيبة، عرف جمال صاحبتها من تلك الرائحة الكريمة.

---

(41) عبقرية الشريف، ص316.

(42) المأزم: كل طريق ضيق بين جبلين، وموضع الحرب أيضا مأزم، ومنه سمي الموضع الذي بين المشعر وعرفة مأزمين. الأصمعي: المأزم في سند مضيق بين جمع وعرفة. وفي حديث ابن عمر: إذا كنت بين المأزمين دون منى فإن هناك سرحة سر تحتها سبعون نبيا. وفي الحديث: إني حرمت المدينة حراما ما بين مأزمها (لسان العرب، 17/12).

(43) أغب القوم، وغب عنهم: جاء يومًا وترك يومًا. وأغب عطاؤه إذا لم يأتنا كل يوم... والمقصود (النأي والبعد والغياب) (لسان العرب: 636/1).

(44) عبقرية الشريف الرضي، ص317.

(45) الخميلة كسفينة: المنهبط الغامض من الأرض وفي المحكم: من الرمل. وفي التهذيب: مفرج بين هبطة وصلابة. وهي مكرمة للنبات. وقيل: هي الأرض السهلة التي تنبت، شبه نبتها بخمل القطيفة. وقيل: هي منقع ماء، ومنبت شجر، ولا تكون إلا في وطيء من الأرض. أو رملة تنبت الشجر قاله الأصمعي، وأنشد لطرفة: (خذول تراعى ربربا بخميلة ... تناول أطراف البرير وترتدي) (الزبيدي، محمد بن عبد الرازق الحسيني، دار الهداية، الهند، د.ط، د.ت، 437/28.

(46)يقال: فلان طلاع {الثنايا إذا كان ساميًا لمعالي الأمور، كما يقال طلاع أنجد، أو جلدًا يرتكب الأمور العظام (تاج العروس، 304/37) والمقصود: استدرنا ورجعنا راحلين عن المكان.

وفي البيت الرابع، يجعل ذكرها خالدًا مستمرًا مع حتى بعد الاستدارة للرحيل، فيكون التداوِي بذكرها وسيلة من وسائل التصبُّر والعلاج.

سادسًا: الوقوف على الآثار

في مطلع القصيدة التالية شيءٌ من محاكاة الشريف الرضي لواحدة من طرائق الاستهلال لدى الشعر العربي القديم، وبخاصة في العصر الجاهلي، وهي الدعاء للمكان والسكان، وطلب الدعاء للموضع الذي سكن قلب الشاعر، يقول الشريف الرضي[47]:

حيِّ بيْنَ النَّقَا[48] وبيْنَ المُصَلَّى وَقَفَاتِ الرِّكَائِبِ الأَنْضَاءِ[49]
ورَوَاحِ الحَجِيجِ لَيْلَةَ جَمْعٍ وَبِجَمْعٍ مَجَامِعِ الأَهْوَاءِ
وَتَذَكَّرْ عَنِّي مَنَاخَ[50] مَطِيِّي بِأَعَالِي مِنَى وَمَرْسَى خِبَائِي
وَتَعَمَّدْ ذِكْرِي إِذَا كُنْتَ بِالخَيْـ ـفِ لِظَبْيٍ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الظِّبَاءِ

يأتي مطلع هذه الأبيات بصورة جديدة في شعر الشريف الرضي، وهي الدعاء لمكان التقى فيه الشاعر بامرأة سكنت فؤاده، فهو يطلب لها التحية والدعاء بالسلامة بين النَّقا والمصلى عند اجتماع الرِّكائب ووقوفها –وربما كان ذلك في عرصات عرفة.

يعضِّد ما يذهب إليه الباحث ما تبعه في البيت الثاني:

ورَوَاحِ الحَجِيجِ لَيْلَةَ جَمْعٍ وَبِجَمْعٍ مَجَامِعِ الأَهْوَاءِ

فرواح الحجيج لا يكون في تلك الآونة إلاَّ عشية عرفة، بعد غروب الشمس، حين ينفر الحجيج من عرصات عرفة إلى المبيت في المزدلفة، أو عند التحرُّك من المزدلفة في طريق العودة مرة أخرى إلى منى لاستكمال مناسك الحج.

ثم يأتي البيتان التاليان؛ ليكملا ما تعمَّد شاعرنا انتهاجه اقتداءً –ربما- للشعراء الذين أرسوا هذه الفنون من شعراء العصر الجاهلي، فيتوجَّه بالطلب إلى رفيقه، كما جاء في البيتيْن التاليْن:

وَتَذَكَّرْ عَنِّي مَنَاخَ مَطِيِّي بِأَعَالِي مِنَى وَمَرْسَى خِبَائِي
وَتَعَمَّدْ ذِكْرِي إِذَا كُنْتَ بِالخَيْـ ـفِ لِظَبْيٍ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الظِّبَاءِ

إنه يطلب من رفيقه أنْ يذكر عنه ما كان من تصوير حاله عند مناخ المطيِّ؛ مكان إقامته ومبيته، ثم يطلب منه ثانية أن يتعمَّد ذكر ما كان منه في جوار مسجد الخيف تجاه هذه المرأة التي شغِف بها حبًّا.

سابعًا: ومن الوقوف على الأطلال

ومن الوقوف على الآثار، وتذكر أجمل الذكريات مجتمعةً؛ إذ فيها ذكريات نسكية، وأخرى غزلية، ما جاء في قوله[51]:

مَن مُعيدٌ لِي أَيَّا مِي بجزْعِ السَّمَرَاتِ[52]
وَلَيَالِي بِجَمْعٍ وَمِنَى وَالجَمَرَاتِ
وَظِبَاءٍ حَالِيَاتٍ كَظِبَاءٍ عَاطِلاَتِ
رَائِحَاتٍ فِي جَلاَ بيب الدُّجَا مُخْتَمِرَاتِ
رَامِيَاتٍ بِالعُيُونِ النَّجْـ ـلِ قَبْلَ الحَصَيَاتِ

في مطلع هذه الأبيات يطلب الشاعر إعادة ذكريات أيام الحج عليه؛ ليأنس بها، ويحدِّد أمورًا بعينها؛ منها أن يعيدوا عليه أيامًا قضاها بجزع السمرات، وأوقاتًا بعرفة ومنى ورمي الجمرات.

ثم يُتبِع تلك الذكريات التي يودُّ إعادة ذكرها عليه بجاريات حسناوات مختمرات بالسواد، ترمي بعيون نجلاء جميلة قبل رمي الجمرات.

---

(47) عبقرية الشريف، ص321.

(48) النقا، مقصور، الكثيب من الرمل، والنقا من الرمل: القطعة تنقاد محدودبة، والتثنية نقوان ونقيان، والجمع أنقاء (لسان العرب، 339/15). والراجح –والله أعلم- أنها موضع كان معروفًا للعرب.

(49) (النضو) بالكسر البعير المهزول والناقة (نضوة) وقد (أنضتها) الأسفار فهي (منضاة) . و (أنضى) بعيره هزله. و (نضا) ثوبه خلعه. ونضا سيفه سله وبابهما عدا. و (انتضى) سيفه مثله. و (النضو) أيضا الثوب الخلق و (أنضيت) الثوب و (انتضيته) أخلقته وأبليته (مختار الصحاح، ص313.

(50) المناخ: الموضع الذي تناخ فيه الإبل (لسان العرب، 65/3).

(51) عبقرية الشريف، ص323.

(52) موضع بأرض الحجاز.

إنَّ هذه الأبيات وما تلاها من أبيات أخرى كاستهلال لقصيدته الطللية هذه والتي يكثر فيها طلب تذكر المواقف والأماكن والعواطف الجيَّاشة، لخيرُ دليل على أنَّ الشاعر مفتون كل الفتنة بالنساء، ولا يدري قلبه البتَّة بما هو مقيم عليه من مناسك.

والواضح أنه كان يؤدّي عملاً –كما قال النُّقَّاد- لكنه لا يعبأ كثيرًا بحرمة المكان والزمان والمشاعر والمناسك وغير ذلك ممَّا يمسُّ العقيدة، ويُلزِم الخشوع والتنسُّك.

والغريب أنَّ (مبارك) يتساءل: (ما رأيكم فيمَن يرى أن يسمِّي هذه القصيدة "أنشودة الحجيج") ؟![53] فعله يتعجَّب من ذلك أكثر من تساؤله!!

ثامنًا: ومن الوقوف على الأطلال أيضًا

وقد اختار الباحث مطلع القصيدة الطللية –التي تعدُّ أقرب القصائد الطللية تأسِّيًا بالشعر الجاهلي، والتي يقول في مطلعها: [54]

يَا رَفِيقَيَّ قِفَا نَصْوَيْكُمَا ... بَيْنَ أَعْلاَمِ النَّقَا والمُنْحَنَى

وَانْشُدَا قَلْبِي فَقَدْ ضَيَّعْتُهُ ... بِاخْتِيَارِي بَيْنَ جَمْعٍ وَمِنَى

عَارِضَا السِّرْبَ، فَإِنْ كَانَ فَتَى ... بِالْعُيُونِ النَّجْلِ يَقْضِي، فَأَنَا

إِنَّ مَنْ شَاطَ[55] عَلَى أَلْحَاظِهَا ... ضِعْفُ مَنْ شَاطَ عَلَى طُولِ القَنَا

تَجَرَّعَ الأَعْيُنَ فِينَا والطَّلَى[56] ... قَاتَلَ اللهُ فِينَا الطَّلَى وَالأَعْيُنَا

في هذا المطلع الطللي، يطلب الشاعر من رفيقيْه –وكأنه يحاكي امرئ القيس في مطلع معلقته اللامية[57]:

قِفَا نبكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسَقْطِ النَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ

فالشريف الرضي يستعطف رفيقيْه أن يريحا النوق المتعبة بين النَّقا والمنحنى، ويبحثا معه عن قلبه الذي ضاع منه بعلمه وإرادته، بعد أن ترك نفسه للهوى يلعب به في مناسك الحج بين عرفة ومنى.

ثم يطلب منهما أن يتبيَّنا الموكب الآتي، فإن وجدا شابًا أنهكه ذلك الوجد، فسيكون هو الشريف الرضي، الذي استشاط لوعة وشوقًا بسبب نظرات المحبوبة التي قضت عليه، ثم يُظهِر ألم ما ألمَّ به سواء أكان ذلك في العيون المتقرِّحة أو الأعناق...إلى أن يدعو عليهما معًا، طالما سبَّبتا له في هذا الجرح النافذ إلى قلبه، فأصابه.

وهكذا، يجد الباحث أنَّ الشريف الرضي يسلك مسالك الشعراء من قبله، ويتَّبع نهجهم في تنويع المطالع الشعرية في قصائده، غير أننا نجد أنه يزيد في غرض، ويقل في آخر. وأمَّا ما يمثِّل قاسمًا مشتركًا بين هذه الأعمال الفنية، فلا شكَّ أنه موقف افتتانه بتلك المرأة التي لم تترك له شيئًا من تركيزه العقلي، فانشغل بها كل الشُّغل عن كل شيء –وهذا ما سيكون محله في إجمال النتائج التي خلص إليها البحث إن شاء الله-.

المبحث الثالث: خواتيم حجازيات الشريف الرضي

وحينما تقف الدراسة على خواتيم القصائد التي تناولها الشريف الرضي في حجازياته؛ بغية التعرُّف على كيفية ختامه لقصائده، يجد الباحث تنوُّعًا في ذلك الاختتام.

أولاً: ختام قصيدة (ألا يا ليالي الخيف)

وفي ختام قصيدة الشريف الرضي (ألا يا ليالي الخيف)، نشهد ختامًا مناسبًا منه، حيث وافق ما جاء في مطلع أبياته، يقول[58]:

وَيَا بُؤْسَ لِلْقُرْبِ الَّذِي لاَ نَذُوقُهُ ... سِوَى سَاعَةٍ ثُمَّ البِعَادُ مَدَى الدَّهْرِ

(53) عبقرية الشريف، ص323.

(54) عبقرية الشريف، ص 332.

(55) شاط الشيء شيطًا وشياطة وشيطوطة: احترق (لسان العرب، 337/7).

(56) الطَّلى: ولد ذوات الظَّلف، والطَّلى: الأعناق، وفي هذا الموضع (الأعناق) (أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، المكتبة العصرية، بيروت- صيدا، ط5، 1420هـ، ص192)

(57) ديوان امرئ القيس، ت: المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1425هـ، ص14.

(58)عبقرية الشريف، ص326.

فَيَا صَاحِبِي إِنْ تُعْطَ صَبْرًا فَإِنَّنِي نَزَعْتُ يَدَيَّ اليَوْمَ مِنْ طَاعَةِ الصَّبْرِ

وَإِنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي البُكَا قَبْلَ هَذِهِ فَمِيعَادُ دَمْعِ العَيْنِ مُنْقَلَبُ السَّفَرِ

تُظهِر الأبيات تحسُّر الشاعر على ما فاته من قرب المحبوبة، فهو لم يذُق حلاوة القرب إلاَّ وقتًا يسيرًا، وحُكِم عليه بالبعاد مدى الدَّهر... وهذا تصوُّر منطقي؛ حيث مَن يصله بامرأة رآها رؤية عابرة في حشد هائل في الحج.

ثم نقف عند حواره مع صاحبه، ومدلول العبارة يوحي بأنه صاحبه يساعده على التصبُّر والتحمُّل، ولكنه لا يرضخ لذلك، فنراه يبيّن له ذلك قائلاً: إن كنت تملك طاقة للصبر، فإنني لم أعد أطيق ذلك..

ونحن نتساءل: وماذا يملك ذلك الشاعر إذا كان قال (نزعت يديَّ من طاعة الصبر)؟! سوى أنها مجرَّد تنفيسات قد تريح القلب شيئًا حال معالجة الشوق والهوى، إلاَّ أنه يعدُّ تعبيرًا مجازيًا في غاية الروعة والإتقان.

فبعد أن أنشد الشاعر ما في قلبه من أحاسيس تجاه ليال قضاها في منى، وأطلق ما في خواطره من لوعة وشوق، جاء الختام المناسب؛ حين يؤكِّد تأكيدًا قاطعًا أنه لا يتحمّل الصبر على ما به من تباريح الهوى، وإن تحمَّل صاحبه، فهو على النقيض من ذلك، لا يطيق الصبر.

ولعل هذه المشاعر المتأجّجة في هذا المقام –في ليالٍ مباركة في مناسك الحج- خير شاهدٍ على أنَّ الشريف الرضي كان مشغولاً أيَّما انشغال بالنساء بصفة عامة، فما شغله في المناسك والأراضي المحرمة، لم يكن وازعًا رادعًا له عن الافتتان بالنساء وجمالهن ومتابعتهن!!

ثانيًا: ختام قصيدة الغزل عند مسجد الخيف

في ختام الأبيات التي قالها في منى، بالقرب من مسجد الخيف، حين افتُتِن بامرأة، ولم يمهله الوقت، فتفرَّق الجمع كلٌّ إلى قبيلته وموضعه (نظرتك نظرة في الخيف...)، وسيكتفي الشاعر بالبيت الأخير، والذي يختم به تلك الأبيات بقوله[59]:

وَلَولاَ أَنَّني رجُلٌ حَرَامٌ ضَمَمْتُ قرُونَهَا ولَثَمْتُ فَاهَا

ففي هذا البيت، من الناحية الفنية اختتام مناسب، جمع فيه الشاعر خلاصة ما أراد أولاً وآخرًا، فهو لا يخجل أن يصرّح بأنه لولا مقام الحج، ووجوده في الأماكن المقدسة، لما تباطأ في أن يحتضنها ويقبّلها من فيها.

وهذا الختام حين يصرّح به الشريف الرضي، إنما يجزم بما لا يترك مجالاً للريبة في أنَّ الشاعر لم تكن أبدًا قضيته الأولى العقيدة وأداء المناسك الدينية، والالتزام بمهامه الكريمة، وإنما كان يترك نفسه لهواها، ويظهر لنا تعلقه الشديد بالنساء على اختلاف ألوانهن وأجناسهن.

ثالثًا: في النسيب، ختام قصيدته (وما كنت أدري الحب...)

ويختتم الشاعر أبيات هذه القصيدة في النسيب، يقول[60]:

وَمَا كَانَ إلاَّ وَقْفَةً لَمْ تَدْعُ دَوَاعِي النَّوَى مِنْهُنَّ غَيْرَ ظُنُونِ

نَصَصْتُ المَطَايَا أَبْتَغِي رُشْدَ مذْهَبِي فَأَقْلَعْنَ عَنّي، والغِوَايَةُ دُونِي

فهذا النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم- قد دعمه الله بمعجزة القرآن الكريم بما فيه من أحكام وآيات محكمات، لا يرضى لي الهوان والذل، ولا ينبغي للإنسان أن يجري وراء شهواته وكل ما تتمنَّاه النفس، فأرض الله واسعة لمن أراد أن يسعى فيها.

رابعًا: ومن النسيب

ومن الخواتيم المتأرجحة بين التوفيق وعدم التوفيق في قصائد النسيب في قصيدته (تذكرت بين المأزمَيْن إلى منى...) قوله[61]:

أَأَغْدُو مُهِينًا بالحَبَائِلِ سَاعَةً غَزَالاً عَلى قَلْبِي الغَدَاةَ كَرِيمَا

تَرَاءَت لَنَا بالخَيفِ نَفْحُ لَطِيمَةٍ سَرَتْ عَنْكَ إلاَّ عَبْقَةً وَنَسِيمَا

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ المَاطِلاَتِ عَشِيَّةً ذَوَاتَ يَسَارٍ مَا قَضَيْنَ غَرِيمَا

(1) عبقرية الشريف، ص313.

(2) المصدر السابق، ص315.

(1) عبقرية الشريف، ص316.

اختتامٌ جامع لما سبقه من تمهيد للختام، يصف فيه الشاعر تحسُّره على فوات الفرصة، ووقوعه في حبائل وشراك هذه المرأة، التي تراءت له بموقع الخيف من منى، وكأنها ريح طيبة مرَّت به. ثم يقرِّر أنَّ من أقسى الأمور على المحبِّ المماطلة والتسويف للغريم الذي وقع في شراك الحب والهوى.

إلاَّ أننا أمام توفيق في الاختتام، وفي الوقت ذاته أمام اضطراب واختلال في ترتيب الأبيات للوصول إلى نهاية القصيدة الشعرية؛ حيث إنه من الطبيعي أن يحكي الشاعر عمَّا أصابه في المطلع، بيد أننا نفاجأ بوصفه لذلك في البيت قبل الأخير، وربما كان ذلك الوصف لما ابتدأ به استكمال لمعلومة فاته تصديرها في مطلع قصيدته!!

خامسًا: خاتمة أشهر قصائد النسيب (يا ظبية البان ترعى في خمائله...)

وفي هذه القصيدة نموذجٌ للخاتمة التي استطاع بها الشريف الرضي أن يُنهي ما بدأه من أبيات فيها شديد العذوبة وحلاوة النسيب[62]:

يا حَبَّذا نَفحَةٌ مَرَّت بِفيكِ لَنا وَنُطفَةٌ غُمِسَت فيها ثَناياكِ

وَحَبَّذا وَقفَةٌ وَالرَكبُ مُغتَفِلٌ عَلى ثَرىً وَخَدَت فيهِ مَطاياكِ

لَو كانَتِ اللِمَّةُ[63] السَوداءُ مِن عُدَدي يَومَ الغَميمِ لَما أَفلَتِّ أَشراكي

في هذه الأبيات، يختتم الشاعر القصيدة الغزلية بالمدح، وإن كان هذا غريبًا أن يتأخر المدح إلى نهاية القصيدة، ولكن ربما لجأ الشاعر إلى ذلك ليختم بما يروق له، فذكر الحبيب يحلو في كل وقت وحين.

لنا أن نتأمَّل ذلك من خلال تكرار المدح:

يا حَبَّذا نَفحَةٌ مَرَّت بِفيكِ لَنا وَنُطفَةٌ غُمِسَت فيها ثَناياكِ

وَحَبَّذا وَقفَةٌ وَالرَكبُ مُغتَفِلٌ عَلى ثَرىً وَخَدَت فيهِ مَطاياكِ

- ففي المدح الأول، جاء المدح بأسلوب (حبذا) المسبوق بالنداء، والنداء والمدح هنا لنفحة طيبة من مبسم طيب ذي رائحة طيبة، وفي هذا الشطر جملة من الاستحسان، ما بين نداء لقريب من النفس، ومدح للريح الطيبة، وفيه يظهر الإعجاب الشديد، يؤكِّد ذلك ما تبعه في الشطر الثاني وهو استكمال للمدح للنطفة والجسد الذي حوى هذه الأعضاء اللطيفة.
- وقد وُفِّق الشاعر توفيقًا شديدًا في الوصف في شطر البيت الثاني؛ حيث واءم بين ما جاء في الشطر الأول من تزكية لرائحة فم المحبوبة، واستخدام لفظة (غُمِست) فيها ثناياك، فالغمس مستخدَم أكثر في السوائل والروائح، فجعل النطفة كأنها كائن أو غشاء رقيق غُمست فيه أعضاء جسم المحبوبة.
- ثم يكرِّر المدح بآخر؛ حين رصدتها عين الشاعر المحبِّ الولهان عندما غاصت قدما مطيتها في الأرض عند سيرها، فكان هذا لقاء عابر لم يبعد عن خيال الشاعر.
- إلاَّ أنه ختم ببيْت فيه شيءٌ من الغزل الصريح لفظًا دون تصريح كعادته بالأسماء، وذلك من خلال إيضاحه أنه لم يكن ليتركها تذهب دون الإيقاع بها، ولكن هذا لأنه لم يكن من أوصافه اللمَّة السوداء التي من المعروف أنَّ لها تأثير شديد على الجنس الآخر.

لَو كانَتِ اللِمَّةُ السَوداءُ مِن عُدَدي يَومَ الغَميمِ لَما أَفلَتِّ أَشراكي

- وربما كان هذا البيت –مثل بعض أبيات الشريف الرضي- مثار اتّهامات توجَّه إليه؛ على أساس مكانته الدينية، ومهمته الوطنية التي كان موكلاً بها، ولا سيما في تلك البقاع الشريفة من أرض الحجاز.
- ومن المحرِّر استخدام الشاعر في هذا الموضع المبارك لكلمات موحية (اللِّمة السوداء) على الرغم من أنَّ بها وصف؛ إلاَّ أنه كان من الأوصاف التي لم تُستخدَم للمعالجة الشعرية إلاَّ في موضع الغزل الفاحش... يزيد من ذلك استخدام الشاعر في الشطر الثاني تحسُّر الشاعر على إفلات هذه المرأة من (شراكه)، وهذا ما يعطي إشارات تُنبِئ عن إضمار اللَّهو والمجون في هذه البقاع الطاهرة، وهذا محل انتقاد النُّقَّاد بلا ريب.

سادسًا: الختام في قصيدة الوقوف على الآثار والدعاء للموضع والمكان

وفي القصيدة التي مبدؤها:

---

(2) المصدر السابق، ص 318.

(3) سمرة في الشفة تستحسن، ورجل (ألمى) وجارية (لمياء) بينة اللمى. و (لمة) الرجل تربه وشكله. وفي الحديث: "ليتزوج الرجل لمته" (مختار الصحاح، ص285).

حيِّ بيْنَ النَّقَا وبيْنَ المُصَلَّى وَقَفَاتِ الرِّكَائِبِ الأَنْضَاءِ

يختتم الشاعر الأبيات عقب حوار طويل بينه وبين صاحبه، بقوله[64]:

قَالَ لِي صَاحِبِي غَدَاةَ الْتَقَيْنَا نتَشَاكَى حَرَّ القُلُوبِ الظِّمَاءِ
كُنْتَ خَبَّرْتَنِي أَنَّكَ فِي الوَجْدِ عَقِيدِي، وأنَّ دَاءَكَ دَائِي
مَا تَرَى النَّفْرَ[65] وَالتَّحَمُّلَ للْبَيْـ ـنِ[66]، فَمَاذَا انْتِظَارُكَ للْبُكَاءِ؟
لَمْ يَقُلْهَا حَتَّى انْثَنَيْتُ لِمَا بِي أَتَلَقَّى دَمْعِي بِفَضْلِ رِدَائِي

حمل هذا الختام صورة حوار بين الشاعر ورفيقه، الذي يعاني مثلما يعاني الشاعر، فدار بينهما ذلك الحوار، الذي آثر الشاعر أن يجعله ختامًا لقطعته الشعرية، فينقل فيه أنَّ صاحبه قال له –عندما كانا يلتقيان يشكو كلاهما للآخر عطش قلبه للحب والشوق- أنه كان قد أخبره أنَّ المبدأ واحد عندهما، وأنَّ داء الحب واللوعة مشترك بينهما.

ويحمل لنا حوارًا آخر، يحمل تعجُّب صاحبه منه أنه لا يبكي ألمًا وحزنًا على ترك المحبوبة في وقت النفرة والرحيل، حيث إن لم يكن يبكي الآن، فمتى يبكي؟

ثم يجعل –دونما أيّ تحرُّج- ختام مقالته الشعرية ممثَّلة في بكائه بعدما سمع مقولة صاحبه عند الرجوع والنفرة، إلاَّ أنه كان يخفي ذلك بطرف ثيابه!!

وفي هذا المقطع الختامي: إجابات لتكهُّنات كان الباحث قد ساقها في استعراضه لمطلع هذه الأبيات؛ فتأكَّدت هنا في الخاتمة الشعرية؛ وهي أنَّ الموقف وقفة عرفات، والنَّفر بعد يوم عرفة..

سابعًا: ختام القصيدة الطللية (من معيد لي أيامي...)

في هذه القصيدة التي مطلعها:

مَن مُعيدٌ لي أَيَّا مِي بجزْعِ السَّمَرَاتِ

يختتم الشاعر هذه الأبيات بقوله:

فَسَقى بَطْنَ مَنَى والْخَـ ـيْفَ صَوْبَ الغَادِيَاتِ
وَزَمَانًا نَائِمَ العُذَّا لِ مَأْمُونَ الوُشَاةِ
فِي لَيَالٍ كَاللَّآلِي بِالغَوَانِي مُقْمِرَاتِ
غَرَسَتْ عِنْدِي غَرْسَ الْشَّوْ قِ مَمْرُورَ الجُنَاةِ
أَيْنَ رَاقٍ لِغَرَامِي وَطَبِيبٍ لِشَكَاتِي

بعد أن بدأ الشاعر قصيدته بالوقوف على الأطلال –كما طالعنا في المطالع-، يختم الشاعر قصيدته بالدعاء للأماكن التي شهدت واقعة الغرام التي حفل بها شعره، فيدعو لبطن منى والخيف بأن يباركها الله بسقيا المطر والخير.

ثم يدعو لهذه الأوقات التي لا يوجد فيها عذَّال مترِّصون يتابعون ويوشون؛ وهذا طبيعي؛ فالكل مشغول والزحام على أشدِّه في هذه الليالي المقمرات، وتكثر فيها النساء الجميلات.

ووسط هذا الجو، أصابته هذه المرأة بنظراتها، فأثَّرت فيه تأثيرًا شديدًا؛ حيث علقها قلبه.. ثم هو يسأل عمَّن يرقيه من هذا الغرام، وعن طبيب يعالجه من آلامه البدنية التي نشبت من جرَّاء سهره ومعاناته.

ثامنًا: ختام القصيدة الطللية (يا رفيقيَّ قفا نضويكما)

وفي ختام هذه القصيدة الطللية، والتي يقول في مطلعها:

يَا رَفِيقَيَّ قِفَا نَضْوَيْكُمَا بَيْنَ أَعْلاَمِ النَّقَا والمُنْحَنَى

يختتم الشاعر القصيدة بقوله[67]:

حَبَّذَا مِنْكِ خَيَالٌ طَارِئٌ مَرَّ بِالحَيِّ ولَمْ يَلُمّ بِنَا
بَاخِلٌ بَخِلَ الَّذِي أَرْسَلَهُ سُئِلَ النَّيْلَ وَمَا جَادَ لَنَا

(1) عبقرية الشريف، ص 322.

(2) النَّفر: نفرة الحجاج من موقف عرفات.

(3) البَيْن: الفراق والبعاد، والمقصود: الرحيل من موقف عرفات متجهين إلى المزدلفة.

(67) عبقرية الشريف، ص 332.

سِرْحَةٌ أَعْجَلَهَا الْبَيْنُ وَمَا لَبِثَ الظِّلُّ وَمَا ذِيقَ الجَنَى
مَا رَأَتْ عَيْنِي مُنْذُ فَارَقْتُكُمُ يَا نُزُولَ الحَيِّ شَيْئًا حَسَنَا

تقف الدراسة على هذا الجزء من الأبيات الأخيرة لهذه القصيدة، حيث يمهّد للخروج والختام بمدح للخيال العابر الذي خطف خطفة عابرة، إلاَّ أنه لم يستمتع به؛ حيث يراه بخيلاً كبخل صاحبته التي لم تجد بلقاء الشاعر وإراحة قلبه.

ثم يصف هذه الالتفاتة السريعة التي لم تدم طويلاً بسبب سرعة النَّفر والرَّحيل؛ حيث أسرع الغروب، فضاع منه أن يذوق حلاوة هذا الغزال، الذي لم ترَ عينه راحة منذ رؤيته والتعلُّق به.

...وبعد هذه النماذج من خواتيم القصائد لدى الشريف الرضي، يتَّضح للباحث جليًّا أنَّ هناك تقارُبًا شديدًا في أسلوب اختتامه لقصائده؛ ما بين التحسُّر على ضياع الفرصة، ومدح تلك الأوقات التي مرَّت خلسة سريعة، وإظهار ما ألمَّ به من آلام شوق ولوعة، وآلام بدنية صاحبت ذلك ربما لكثرة السُّهاد والسهر والتفكير في المحبوبة.

خاتمة:

كانت هذه دراسة في مطالع وخواتيم حجازيات الشريف الرضي، الشاعر العباسي، جعلت فيه الدراسة دراسة (عبقرية الشريف الرضي) لزكي مبارك كتابًا يجمع مقطوعات وأغراض الشاعر في حجازياته، وحاول الباحث انتقاء بعض القصائد بعينها؛ للاستدلال على نماذج متعددة سواءً في المطالع الشعرية، أو في الخواتيم.

وقد عمد الباحث إلى الوقوف على الأبيات في محوري الدراسة، ثم شرح المعاني الصعبة لتسهل على القارئ من خلال مجموعة من المعاجم اللغوية الشهيرة؛ كلسان العرب، ومختار الصحاح، وتاج العروس؛ ليكون المعنى قريبًا في فهمه، واضحًا في مضمونه، إلى جانب تحليل وشرح للأبيات شرحًا موجزًا، ثم إيضاح ما في الأبيات من مطالع أو خواتيم.

وقد استطاع الباحث من خلال الدراسة استخلاص مجموعة من النتائج على النحو التالي:-

- الشريف الرضي -شأنه شأن الشعراء العباسيين- شاعر متمكِّن في لغته ولفظه ومعانيه.
- أظهرت النصوص الشعرية أنَّ الشاعر كانت له مكانة في زمانه، يشهد على ذلك اختياره أميرًا للحج، سواء أكان ذلك لشخصه، أو كان تكريمًا لشخص والده العالم الكبير.
- يُحسَب للشريف الرضي عدم تصريحه مطلقًا باسم محبوبة له في أعماله الشعرية، على الرغم من تصريحه بتباريح الهوى وشدة الوجد والهيام في معظم قصائده وأبيات شعره.
- أثبتت معظم القصائد إن لم يكن كلها أن المرأة التي نشب حبها في قلب الشريف الرضي كانت امرأة واحدة، أصاب سهمها قلبه أثناء وجوده في منى، وبالتحديد في منطقة [الخيف]، فعلى الرغم من روحانية هذا المكان وبه مسجد الخيف الشهير بمنى، إلاَّ أنه انخلع قلبه لمرأى هذه المرأة التي ظلَّ يبحث عنها وعن دواء للتداوي به من جرَّاء شوقه لها.
- استخدم الشريف الرضي مطالع متنوِّعة؛ منها الوقوف على الطلل، والدعاء للمحبوبة ومكان رؤيتها وزمان ذلك أيضًا، كذلك الوصف، وإن كان تخصيص عملاً فنيًا لهذا الغرض لم تقف عليه الدراسة سوى في قصيدته في (وصف الغزل العفيف)، أمَّا النسيب، فهو الغرض الذي كثر فيه قرض الشاعر للكثير من أشعاره وقصائده.
- أمَّا الخواتيم، فجاءت موفقة حينًا، ومضطربة حينًا آخر، ولكن غلب عليها الدَّمج بين المدح وإظهار اللَّوعة والألم والشوق، وطلب التطبيب والرقي في بعض الأحيان، ولمَّا كان الشاعر ملمًّا بالشوق المتزايد والأحاسيس المحترقة، فكان ينسى أنه في سياق الختام، فيعود أدراجه للوصف أحيانًا، وللمدح أحيانًا أخرى، وهذا حال المحبِّ حين يُحرَم عطاء مَن يبادله العاطفة!!
- لا يمكن غضُّ الطِّرف عن عبثية الشاعر ولا مبالاته بما كان يشغله من منصب ديني وتكليف سامٍ؛ بتركه نفسه ريشة في مهب الريح، تلعب بها نظرة لجارية، وبحث عن الغواني والجواري والجميلات في أطهر بقاع الدنيا على الإطلاق؛ في مناسك الحج المباركة.
- على أية حال، فشاعرنا شاعر موهوب، وإنْ شهدت حجازياته على أنه من الشعراء الذين لا يستطيعون الخروج من نقطة البداية، ليس لعقم معجمهم الشعري، ولكن لضعف القلب إزاء الظباء!!

المراجع

- إبراهيم، ريكان، نقد الشعر في المنظور النفسي، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1989م.
- الأمين، السيد محمد، أعيان الشيعة، الجزء التاسع، ت: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت،1983م.
- الأميني، عبد الحسين، الجزء الرابع، دار التعارف، بيروت، ١٤١٨هـ

- الباخرزي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، الجزء الأول، تح: محمد التونجي، مطبعة الحياة، دمشق، ط1، 1971م.
- بسيوني، عبد الفتاح، علم البديع، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 1998م.
- الجواري، أحمد عبد الستار، الحب العذري نشأته وتطوره، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٤٨م.
- الدملخي، إبراهيم، الألوان نظرياً وعملياً،- مطبعة الكندي، حلب، ط1، 1983م.
- ذوقان، عبيدات، وكايد، عبد الحق، وعبد الرحمن، عدس، البحث العلمي، مفهومه وأدواته وأساليبه، دار الفكر ناشرون، عمان، 2012م.
- سويف، مصطفى، الأُسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1951م.
- الصعيدي، عبد المتعال، البلاغة العالية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٥هـ
- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1981م.
- الكيلاني، محمد سيد، دراسة في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٩٦م.
- مبارك، زكي، عبقرية الشريف، كلمات عربية للترجمة والنشر، مدينة نصر القاهرة، 2013م.
- نصير، ياسين، الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، دار نينوى، دمشق، ط1، 2009م، 16 -17.
- يوسف، حسين بكار، بناء القصيدة العربية، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1982م.

الكتب والدوريات

- ابن منقذ، أسامة، البديع في نقد الشعر، ت: أحمد أحمد بدوي، الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة ، ط3، 2010م.
- حسين، عبد الرسول، صحيفة الوسط، العدد 827 - الجمعة 10 ديسمبر 2004م الموافق 27 شوال 1425هـ.
- حقاني، نادر عبد الكريم، قراءةٌ نقديّةٌ في حِجازيّاتِ الشريف الرضي –ليلة السفح أنموذجًا- ، مج23، العدد [89]، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2003م.
- قحطان، رشيد صالح ، الخاتمة في شعر المتنبي ، مجلة المورد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ع1، 2004م.

خامسًا: الرسائل العلمية

- الجرود، هيثم، تطور فن الحجازيات إلى نهاية القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير قدّمت بجامعة حلب، 2001م.

سادسًا: الدواوين

- ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م.
- ديوان امرئ القيس، ت: المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1425هـ
- ديوان جرير، شرح محمد بن حبيب، تح: نعمان أحمد أمين طه، دار المعارف، مصر، ط2، ١٩٧٦م.
- ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت، ط1، ١٩٦٦م.
- ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥١م.

سابعًا: الإنترنت

- جاسم، محمد جاسم، القصيدة العمودية: جماليات الخاتمة، قراءة في نماذج الشعر الموصلي المعاصر، مجلة بيت الشعر، https://sites.google.com/site/beetalsheer
- عز، فاطمة صلاحي، حجازيات الشريف الرضي، في رحاب نهج البلاغة، http://arabic.balaghah.net/content.